«إن الباهر الأخاذ فوق هذه الأرض ..
قريب الصلة دائما بالملك الهابط الجميل ،
الذى لا يعرف السكينة ، الجليل الذى
لايعرف فى تدبيره وجهده توفيقا ، الفخور
الحزين »
بسمارك

عنوان الكتاب بالألمانية :

BISMARCK

VON

EMIL LUDWIG

« أشرف على الترجمة قسم
الترجمة بالادارة العامة للثقافة »

تعريف

عرفت اميل لودفيج في مصر ، وجالسته ، وحادثته ، فعرفت فيه رجلا هادئا ، خافت الصوت ، عميقا ، قليل الكلام ، فاذا تكلم تأنى كثيرا واتئد أكثر مما ينبغي ، وخاصة حين يتكلم بلغة أجنبية ، فهو من هذه الناحية قد خيب أثناء زيارته لمصر ظنون الكثيرين ، ممن توقعوا منه التدفق والافاضة ، ولم يبهر سامعيه . سمعه في حفلة أقيمت لتكريمه في القاهرة عالم أديب مصرى كبير فأعرب عن خيبة أمله فيه . والواقع الذى لا ينبغي أن يغفل في الحكم عليه هو أنه متواضع حيي ، لايحسن الفرنسية ، لغة المجتمع الذى عنى اذ ذاك بتكريمه . وللفرنسية مزاج وتوثب ، ليس شيء منهما لاميل لودفيج ، لا ولانه ما تلحظه في الناطق بالالمانية من وطأة النبرة ، وتوكيد المقطع في الكلمة ، والكلمة في الجملة . وتلحظ الى هذا الهدوء والحياء من اميل لودفيج عطفا نادرا تحيطه به زوجه ، وحيوية ونشاطا فيها يتباينان مع هدوئه وحيائه . وقد اشتهر اميل لودفيج بتاريخ السيرة ، فاستفاضت شهرته ، وأحب من بهرتهم عقلية زوجه أن ينسبوا اليها فضل الكثير مما كتب ، فأخطأوا في حقه ، فان كتاباته الفياضة لتنم عن وحدة الكتابة لا الشركة ، وانك لترى هذا الكاتب الواحد في كل ماكتب . أجاد فبلغ الذروة ، وأجاد فالتزم الهضبة ، لكنه لم يهبط فيما قرأت له ، ولم يغم بروزه ، او تغم براعته ، ولم يجمح به تعقيبه ، فهو في بسمارك معقب بارع على معقب بارع ، لايخرج عن الجادة التي التزم ، والحد الذى لزم . فكتابته من ثم مركزة ، وعبارته عويصة يكتب بها عن عويص هو بسمارك ، لا يلتزم المألوف والعرف في اللغة ، ويتحرر شأن الشعراء من بعض المستلزمات النحوية . وقد قلت عنه في مقدمة « نابليون » — وأحب هنا أن أقتبس ما قلت — انه : « محلل بارع ، دقيق ، وعملية تحليله تتمثل في عملية تعبيره ، فهو يشرح ولا يشرح ، فاذا عرض عليك نتيجة تشريحه تكلم بلغة الفن ، فعدد العناصر ، ورتب النتائج ، وانتهى من ذلك في لمح البرق . ومن هنا يطول الوقوف والتأمل عند عباراته . فالعابر بها لايسلم من اساءة الفهم ، ولو كان من أبناء لغته ، يقرأ له بلغته

« ان أسلوب لودفيج عرض خاطف لصور حية تمر بخاطرك مرا . وأنت معه لا تعرف ماضيا ، بل ترى حاضرا تعيش فيه مع شخصياته ، تحبها أو تبغضها حبا او بغضا من عمل الساعة ، وتتحمس لاعمالها او تستهجنها

وكأنها تمسك في الصميم . وهو وصافه . ووصفه من قبيل اللمحات الكشافة : تظهرك في لحظة على كل شيء . يغوص الى الأعماق ، ويطوف بجنباتها ، ويفتش عن الدقيق المستكن ، ويقلب النفس ظهرا لبطن ، فكأنك معه تطلع على الغيب . تلمح عطفه على شخصياته مع تجريحها احيانا . وقد عطف على نابليون أشد العطف ، وكشفه أجلى كشف »

كذلك عطف على بسمارك وكشفه مع ذلك ، فدافع عنه ظلم المأثور ، وعرض صوره صورة صورة : عرضه فتى مستهترا ، يخرج الى الشارع وهو طالب يروب البيت وعلى رأسه طاقية ، مشاكسا يدعو الى المبارزة كل من يخال أنه أهانه ، يشرب الخمر ويسرف على نفسه ، ويجرى وراء النساء ، ويفعل ما يفعل ابناء النبلاء الذين يعتمدون على دخلهم وضياعهم . لايهوى العمل ، ولا يطيق الدربة ، ولا يزاول وظيفة ، فاذا زاولها لا يبقى فيها طويلا . مغرم بالقراءة والكتابة مسرف فيهما ، فهو مطلع واسع الاطلاع ، وكاتب خبير بالنفس البشرية . فكيف انقلب هذا الحائر البائر حاسبا دقيق الحساب ، طموحا يصبح سفيرا طفرة ، ووزيرا لم يشتغل من قبل بشئون الادارة ؟ سيدلك اميل لودفيج على هذا كله ، وعلى العجيبة الكبرى : أن يصبح بسمارك فيصل أوربا وسائسها المجلى

وقد ترجمت له مما كتب : « نابليون » و « بسمارك » لانهما خير كتبه ، وخير الاثنين « بسمارك » . سمعت فيه أخيرا رأى المانى مهنته الثقافة ، لا مجرد الاهتمام بها ، قال : ان اميل لودفيج زاد الالمان معرفة ببسمارك ونشر عنه من الوثائق ما خفى كثيره عنهم . ورأيت أنا فيه وانا اقرأه ، ثم أترجمه ، ثم أصحح تجاربه ، أنه يعرض شريطا سينمائيا للسياسى الأشهر ، هو فيه كوكبه وممثله ، والكلام فيه كلامه ، تتسلسل فيه حوادثه تسلسلا عجيبا فليست فيه حلقة مفقودة

لقد مات اميل لودفيج من سنوات مضت . مات بعد أن كتب عن مصر والمانيا ، ورضى عن كثير مما كتب ، ولم يرض عن بعضه ، وكذلك كان رأى الناس فيما كتب . كتب عن جوته ونابليون وبسمارك وغليوم الثانى ، وكتب عن السيد المسيح وعن النيل ، فكان في كتاباته منصفا أكثر منه متحاملا ، وان برزت ميوله العنصرية أحيانا ، وافكاره الاشتراكية أحيانا اخرى . لكنه مع هذا استحق الخلود

محمود ابراهيم الدسوقى

القاهرة في التاسع من مارس ١٩٥٦

مقدمة

بقلم اميل لودفيج

فارس مدجج فى سلاحه يبزغ من غبش كغبش الصبح ، فهو غامض واضح وكأنه صورة رسمها رامبرانت . ذلك هو بسمارك ، أو ذاك ماينبغى أن يوصف به ، عصفت من حوله بغضاء الاحزاب منذ ثمانين عاما ، ولم يحبه الناس فى حياته كثيرا ، لانه كان قليل الحب للناس . فلما مات بات فى حكمهم تمثالا ، ذلك أن دخيلته لبثت خافية مستعصية ، حتى أصبح بين الألمان صنوا لرولان ✻ لكنه صنو من حجر .

ومهمة هذا الكتاب ان يقدم صورة مجاهد ظافر ضال ، وان يعرض خلقا مفعما بالكبرياء والجراة والبغضاء ـــ تلك العناصر الاساسية التى تصدر عنها افعاله ، واليوم ، وفريق فى الأمة يكرمه لأنه من أنصاره ، وفريق آخر ينحى عليه ، ينبغى أن نغوص فى تاريخ نفسه الى القرار ، فبسمارك قد رهن بشخصه مصير الألمان فيجب أن تتبين الأمة خلق هذا الرجل كيف كان ، لا كيف صوره التبجيل أو شوهته البغضاء

والرجل التاريخى اعقد تركيبا من نظامه وأشد تعقيدا من تمثاله ، وبدلا من تصعيب الوصف بالملاحظات ، والجرى فى ذلك على الطريقة الاكاديمية ، نريد أن نساير عصرنا فنجعل الشخصيات العامة فى متناول الجميع كأنموذج وانذار . والانسان والسياسى لاينفصلان . والمشاعر والاعمال يؤثر بعضها فى بعض ، والحياة الخاصة والحياة العامة تجريان معا . وصوغ تمثال كامل من النتائج التى ينتهى اليها الباحث هو مهمة الفنان

لقد تم تنشؤ بسمارك وتكوينه النفسى فى مستهل الحلقة الرابعة تقريبا . فالى ذلك الحين ظل خمسة عشر عاما يتحمل أشد الزعازع ، ثم جاء ماتلا ذلك معمقا لمشخصاته . ومن ثم وجب ان نسهب فى وصف صباه حيث اوجزت كل التراجم تقريبا ، فأفردت له بضع صفحات . ذلك ان صباه هو بالذات تلك المرحلة التى لم تدخلها السياسة من مراحل عمره

✻ بطل من أبطال القرون الوسطى . خلد فى الشعر الشعبى الفرنسى فى أغنية رولان

ورسم صورة نفسية لبسمارك لم يتم الا لكلين ــ هاتنجن فى نطاق الوثائق التى تيسرت له . بيد ان هذه الصورة اسىء فهمها . وفى سنة ١٩١١ قمت فى « محاولة سيكولوجية » بمعارضة أسطورة المستشار الحديدى ، فعرضت طبيعته العويصة ، وبعد ذلك بعشر سنوات حاولت أن أحرك بسمارك على خشبة المسرح الالمانى من طريق الدراما فى ثلاثية روائية

وتختلف الصورة الجديدة عن محاولتى السابقة البعيدة من السياسة ، كل الاختلاف . فكما أن الكتاب القديم لاتكرره فى الجديد أية جملة ، كذلك يعرض هذا الكتاب عين الشخص فى ضوء جديد . ولم نحتفظ هنا بسوى الفكرة الاساسية عن هذه الشخصية العويصة . وقد استلزم العصر بما تبين من علاقات مابعد الحرب ، ومانشر من وثائق ومذكرات حاسمة ، كما استلزم اخيرا تنشؤ المؤلف من الناحية الشخصية ، أن نعرض شخصية بسمارك عرضا جديدا أكثر تدقيقا

وقد بات الغامض الواضح حول شخصية بسمارك بعد هذه الاطلاعات اكثر تشويقا . فمن لايطلب تمثال مجاهد بل يبحث عن سيرته ، فذلك الذى يقف مشدوها امام هذه الحياة التى كانت دواما جهادا ، وحينا نصرا ، وابدا حمية ، وغالبا حكمة ، واحيانا خطأ ، ولم تكن قط رضى ، ثم كانت مع ذلك حين الفتنة والغرور حياة بارعة

الكتاب الأول

الضّال

« بسمارك طبيعة تستهلكها الحياة
لكن الراحة تقتلها »
ا . كيزرلنج

الفصل الأول

في الروضة الصيفية ، تحت ظـلال البلوط العتيق ، يلعب غلام اشـقر ، ربعة ، ذو عينين متهللتين ، داكنتين .. انه فى الرابعة من عمره ، لكن من يراه وهو يضرب الارض بفأسه ، ويحمل ترابها عربة يد ، ثم يفرغها هناك عنـد البركة ، حيث يبنى قصرا من التراب والحجارة ، يمكن ان يحسبه فى السادسة ، لما يبديه من قوة فى ممارسة هذا العمل . فاذا ما أتى البستانى يبغى اصطحابه الى المائدة ، مانع وغضب

والبيت بسيط من بيوت السادة وادنى الى ان يكون كبيوت الموسرين من القرويين . غير أن وسطه الذى تنفتح عليه خمس نوافذ ، تعلوه طبقة ، ويمتد باقيه الى الارض المنبسطة . كل شيء فى البيت اطار وزجاج ، هادىء ، عاطل من الزينة . وحين يطل الغلام من النافذة من الطبقة العليا يترامى لناظره القمح الأصفر ساكنا لايسمع له صوت .. الا أن تهب الريح على بوميرانيا ، فعندئذ تميل رؤوس السنابل المثقلة ، ويتموج الحقل ربى وأخاديد تعلو وتهبط

ويقول الاب حين يستصحب غلامه الى القرية « هذا كله ملكنا » ، ذلك انه ورث هنا فى كنيبهوف ألفين من الأفدنة منذ عهد قريب ، فارتحل من ثم من سكسونيا ، من شينهوزن التالدة الى بوميرانيا الخلفية ، والغلام اذ ذاك قد أتم الحول

ويفكر الطفل وهو خارج مع أبيه : « هذا كله ملكنا » ، ذلك أن القرية والمزرعة كلتيهما واحدة . ليس فيها قرويون بل أجراء فحسب يتبعون الضيعة . وهم فى أكواخهم الحقيرة وتحت سقوفها المبنية بالقش ارقاء اكثر مما يحبون ان يعتقدوا أو يعتقد سادتهم

يا حضرة النبيل !

وهنا مقطر الكونياك ، وهناك دكان الحداد ، وحين يتسلل الغلام الى البقر فى زريبتها يقول له براند راعيها الهرم الذى يشرف على التسعين : « حاذر يا حضرة النبيل فقد ترفسك البقرة فى عينك ثم لاتلحظ البقرة شيئا وتمضى فى علفها ، وتتلف عينك ! » ويعاود الرجل المعمر : يا حضرة النبيل ! ويتكلم كلاما عاميا . ولن يزال بسمارك بعد سبعين عاما يذكر هذا الواقعى الطبيعى بما كان يقصه

عليه من حكايات عن الملك فريدريك ولهلم الاول وقد رآه فى كوسترين رأى العين ، وذلك قبل فريدريك الاكبر بزمن طويل

وكذلك يعرف الاب ما يقصه على ولده حين يدخلان القاعة ذات النوافذ الثلاث فى يوم العيد ، فان بهذه القاعة صورا معلقة لبعض الأجداد عليها مهابة ، وفى نظراتها جمود ، وهى تطل من تحت الخوذ متقلدة السلاح فى أطرها المغبرة . وقد ساد اغلبهم حقا على نهر البه منذ اكثر من خمسمائة عام . وحين يقص الاب على ابنه الاكبر وهو فى التاسعة من عمره ما يجوز ان يفهمه ، ينصت الاصغر الى مايرويه الوالد . فماذا كان يسمع ؟ ان اجداده كانوا جميعا فرسانا كهؤلاء الذين تزدان بصورهم القاعة ، وانهم كانوا منذ قرون يسكنون القصور والدور ، ويقتنون العبيد ليفلحوا لهم الارض ، وانهم تقلدوا مناصب فى الشرطة والقضاء ، وكانوا منذ العهود الغابرة يجلسون فى الكنيسة على مقاعد مصنوعة من خشب البلوط بمنأى عن حشمهم وخدمهم كما لايزالون يفعلون اليوم فى هذا المكان

اجـداد

ولعل السيد فردينان فون بسمارك كان يروى كذلك ان هؤلاء الاجداد كانوا جد عنيدين ومتغطرسين اولئك الالتماركيين ، وانهم كانوا يترفعون عن التوجه الى البلاط ، وانهم كانوا غالبا من المتمردين . او لم يرغم احد الامراء الناخبين جدا له من قبل على النزول له عن اجمل الغابات فى مقابل شينهوزن فكان بهذا البدل من المغبونين ؟ كذلك تزعم الجد الاكبر معارضة الفرسان الالتماركيين قبل مائة عام حين جرؤ الملك على فرض ضريبة على اقطاعاتهم ، واحتج على هذا «الخفض لطبقة حرة من طبقات الفرسان الى مرتبة اسيفه هى مرتبة دافعى الضرائب» وقبل أن يموت الملك نبه ابنه فريدريك الصغير الى بيت بسمارك من بين بيوت أربعة مشاكسة عددها له ، ونعته بأنه أشرف هذه البيوت حسبا و « أردؤها » معا

وقد كان جد الغلام مدمنا للخمر شديد الادمان ، وصيادا ماهرا ، اصاب مرة ١٥٤ ايلا احمر فى سنة واحدة . والغلام اشبه به منه بغيره . اما الاب فلم يعد من رعيل الفرسان ، وكذلك كان الجد الذى نشر فى وفاة امرأته الصبية مرثية مؤثرة قبل ان تنشر « آلام فرتر » فافاض فى وصف الزوجة والزواج . وهذا المتتلمذ لروسو ، الذى اراد ان يجعل من ابنائه « اربعة رجال شرفاء فحسب » وكان ينعتهم بالاصدقاء ويسجل مع الغبطة رسائلهم البليغة ، كان يقتنى مكتبة كاملة تحتوى ما صنف العلماء . وقد اورث ابناءه الراحة العاطلة من الفعال والزهد فى الطموح . وخاض أبناؤه جميعا غمار الحرب ، لكنهم لم يغشوا البلاط ، وكانوا جميعا من العزاب يتبعون فى الحياة اسلوبهم الخاص

ولا عجب من ثم أن يخرج فردينان الذى يرى ولديه الآن فى كنيبهوف ، من الجيش بعد أول حرب ولم يزل فى الثالثة والعشرين ، فيحنق ملكه بذلك حنقا شديدا بلغ من شدته ان جرده من رتبة اليوزباشى وبذته ، وانه لم يردهما اليه

الا بعد زمان طويل . كذلك لم يعد ابو بسمارك الى الجندية فى احرج الاوقات : ففى سنة ١٨٠٦ عندما نزل الامبراطور فرانتس عن تاج الامبراطورية الالمانية تزوج ولم يضع المدرة ليجرد السيف ، لا فى معركة ينا ، ولا فى حرب التحرير ، مع انه كان يومئذ صحيح البدن ، يضرب فى حدود الاربعين

من أجل الأب

وهذا الاب ، ابو بسمارك ، الزاهد فى الحروب ، الجسيم ، الفكه ، القوى ، الفياض الشعور ، كابنه ، قد خاطبه فريتس الهرم وهو غلام : وهذا كل ما وسعه أن يرويه عن بروسيا من حكايات . وقد رباه ابوه المستنير نبيلا بكل معانى النبل ، وجنبه كل تحامل ، فاحتفظ فى الحياة بتوازن النفس . واذ هو سيد فى بيته ، لايكثر من السؤال ، تراه يخاطب أولاده وهم صغار بصيغة الغائب . يسير فى الحياة سيرة مرتجلة ، ناعما ، مستمتعا ، لا تشغله مزارعه ، ويديرها له مفتش كيفما اتفق . احب شيء اليه الصيد والخمر ، ذلك انهم جميعا من مدمنيها منذ قرون . وله رسائل ممتعة : «اليوم عيدميلاد اوتو . وقد نفقلنا الليلة تيس جميل . ما أردأ الجو .. اظن نبيذ الميدوك ونبيذ الرين لم تعد لهما الحميا الكافية ، ومن ثم عكفت على نبيذ بورتو البرتغالى والشيرى ، وارجو ان تتحسن الحال قريبا . كذلك لن اجعل القهوة القوية تنقصنى (ويلى ذلك المحار وكبد الأوز الخ ..) وعلى الرغم من هذه الأطايب أمنع النفس ماتشتهى ، فمتى شاخ المرء لم يعد يطيب له شيء »

وكانت الزوجة التى اتى بها الى بيته وهو فى الخامسة والثلاثين ، حسناء فى السابعة عشرة من عمرها ، لكنه كان لها انف طويل وكانت لها عين اعقل مما ينبغى . وكانت خليقة بملامحها البارزة هذه ونظرتها العارفة ، ان ترى الخاطب اية عناصر تستكن فيها مما لايعرفه فى نفسه : حجى هادئا ، وطموحا يضطرم به دمها كله . ذلك أن آباءها ، وهم أسرة مينكن ، وقد كانوا قرنا من الزمان أساتذة فى القانون والتاريخ ، قد نموا اباها زهرة ، وجعلوا منه فخر هذا البيت المشتغل بالادب . فقد كان عضوا فى مجلس البلاط فى عهد فريدريك ، ثم رئيسا للمستشارية السرية . ثم غضب عليه واقيل من وظيفته فى سنة ١٧٩٢ فى ذات السنة التى غضب فيها نفس الملك على والد بسمارك . وهكذا لم يعاود مينكن مكانه الى جانب ثالث سيد خدمه الا عام ١٨٠٠ . وقد انتقد ديكتاتورية فريدريك الأكبر ، وطالب الملك بأن يتقيد ، وبأن يجعل الوزراء مسئولين ، وأثبت انه فى مطالبته بالاصلاح ضريب البارون فون شتاين الذى اشاد بنزعة مينكن القوية الى الافكار الحرة . وقد اورث ابنته فهمه وآراءه فكل شيء فيها قد كان مرده الى الفهم ، فكانت تحب المدينة والابهة والبلاط ، وكانت نقيض زوجها فى كل شيء . اراد أن يعيش وأن يكون موجودا فحسب ، وأرادت أن تظهر وأن يكون لها شأن

وقد ورث بسمارك عنها الفهم وورث ذكاءها الحاد الهادىء ، ورغبتها الملحة فى السلطان ، وهى رغبة لم تجد احدا قبله من آل بسمارك . لكنه كان مثالا من ابيه فى روحه وخلقه ، فحقق بذلك نظرية شوبنهور فى الجانبين

الفصل الثانى

حين وضعت الام اوتو فون بسمارك بعد ابنها الاكبر بخمس سنوات كان الامبراطور نابليون قد عاد من البا ، وانفض مؤتمر فينا ، وعقدت بروسيا محالفتها الجديدة مع اوربا . وفى ٢ ابريل ١٨١٥ اصدر الامبراطور فى باريس منشورا ضد المحالفة . وفى صباح هذا اليوم بالذات استطاع اهل برلين ان يقراوا فى الفوسيشه تسايتونج نبا ميلاد الغلام يعلنه السيد فون بسمارك المقيم فى كنيبهوف . وقد أحس هذا الغلام مبكرا بخصومته للام . وكان وهو مايزال طفلا غريبا عنها . قد اعترف بعد ذلك بهذا لغرباء على الرغم من شعوره العائلى ، ولم تخرج من شفتيه فى مئات أحاديثه عن الأسرة كلمة طيبة قط عن هذه الام ، وكان وقد تقدمت به السن ما يزال يأخذها بأنها كانت مغرمة بالادب ، عزوفة عن شئون التربية . وكان يتحدث عنها حديثا مريرا : «فليس فيها شيء مما يسميه اهل برلين شعورا .. فكثيرا ما بدت لى قاسية على ، لايحدوها نحوى شيء من العطف .» ويرجع سببان من أسباب ضغينته الى حداثته ، فقد كانت الأم حين تستقبل الضيف شتاء فى برلين تقصى الأب عن فراشه لضيق المكان ، فلم يغفر لها ولدها ذلك قط . وحين تحدث مرة مباهيا بصورة جد لأبيه استبعدت الأم الصورة لتذل فخره بالنبل .. لحظات مخيفة لهذا الطفل ذات عواقب وخيمة

ضغينة مبكرة

وعزة النفس ، وهى الطبع المتحكم فى خلقه ، متأصلة فى اولى ذكريات حداثته فقد أبق مرة لما أساء اخوه معاملته ، ولم يعثر عليه الا تحت شجرة الزيزفون . ومرة اخرى اتخذ مجلسه بين جماعة من الضيوف فى احد اركان البيت فسمع العديدين يتساءلون بالفرنسية : « لعل هذا من أبناء البيت أومن بناته» فقال فى جراة متناهية : « بل من ابنائه يا سيدى » وكان جوابه بالفرنسية ، فأدهشهم كثيرا

ولم تكن التربية فى المدرسة خيرا منها فى البيت . وقد لبث حتى تقدم به العمر يذكر مع السخط تلك السنوات التى قضاها فى معهد بلا مانش ببرلين بين الثامنة والثالثة عشرة : «كنت غريبا فى حداثتى الاولى فى بيت أبوى فلم اشعر بعد ذلك قط شعورا كاملا بأنى منه فى بيتى . وقد وجهت تربيتى فى البيت

وجهة غلبت تنمية العقل وتحصيل المعارف الايجابية فى اوان مبكر على كل شيء .» واذ كان قد تبين فى الام الجانب المسيطر فقد حملها تبعة كل قسوة فرض عليه تحملها فى مدرسته الداخلية . ولم يكف قط عن التبرم بالخبز الجاف والتربية الاسبرطية التى كانت تكربه هناك ، والتذمر من ارتداء السترة الخفيفة فى الشتاء و «التدريب المنافى للطبيعة» كل المنافاة ومن أن المرء كان «يوقظ من نومه بوخزة سيف كليل» قول كان ما يزال يقصه فى الثمانين

وكان التعصب للالمانية ومناورات النزعة الحرة ومعاداة طبقة النبلاء معاداة كان عليه أن يتحمل انفجاراتها من معلميه بوصفه من طبقة النبلاء — كل هذا كان يحيل شعور الفروسية المطبوع فى ابن العاشرة الى عناد ، ويطبع فى نفسه الكراهية للأفكار الحرة التى كان يجد صداها فى أمه . «لم آكل قط حتى أشبع ، اللهم الا ان يطلب الى ذلك مرة . فقد كان ثمة دائما لحم مطاط . وكان علينا ان ننهض من النوم فى منتصف السادسة ، وان نكتب على عجل من السادسة الى السابعة . وكنا نعامل من ضابط الصف اسوأ مما كان يعامل المجندون ، ونتعرض أثناء لعب السيف لضربات على الذراع تظل سيورها ظاهرة أياما » وكان الغلام يشتاق العودة الى كنيبهوف ، فهنا فى أقصى ولهلمشتراسه قفر . ولكان خليقا أن يرضى لو كان مقامه فى الطرف الآخر حيث دور الحكومة الممتدة وحيث يمر الملك احيانا ! اما هنا خارج المدينة فكان كل شيء مملا موحشا . « وكنت كلما ابصرت من نافذتى ثورين زميلين يحرثان الارض بكيت حنينا الى كنيبهوف» فيظل طيلة العام يترقب العطلة المدرسية : ذلك أنه كان وأخوه موعودين بالعودة الى الموطن

الصدمة الأولى

ترى اية مشاعر لم يكن بد من ان تصدم الطفل عندما كتبت الام على حين بغتة تقول انها لا معدى لها عن التوجه فى يوليه الى الحمامات مما حتم بقاء الغلامين فى برلين ! وظلت الحال على هذا المنوال عدة أصيفة ، ولبث الطفلان سنوات لا يريان البيت ، والروض ، والمزرعة ، والمخازن ، والاصطبلات ، ودكان الحداد ، والقرية . وقد سمى بسمارك هذه الحياة فيما بعد « اشغالا شاقة » فكل شيء يصدر عن الام ، وكل شيء تطلبه وتروضه عليه ، يبدو له شرا تريده به

وحين يكبر يرى ان نشاط الام وطموحها يهددان المزرعة ومال البيت بالضياع فهى تستورد كل سنة الى كنيبهوف آلات وعجلات جديدة ، لتقيم بالطرق الحديثة ما يتداعى بطرق زوجها العتيقة وتراخيه ، فاذا ما حل الشتاء حملته على الرحيل الى برلين يقيمان هناك فى ميدان الاوبرا حيث لاتشبع من العيش فى حياة المجتمع والاناقة . ومن ثم يحفظ فى النفس صورة المرأة المتبرجة وكيف تذهب وأبوه الى حفلة الوزير الساهرة . « انى أتصورها اليوم كما لو كانت ماثلة لعينى فى قفازها الطويل ، وثوبها المحبوك القصير ، وخصلها المنتفشة على الجانبين ، وريشة النعام الكبيرة على رأسها . » أنه ليسمع منها لأول مرة شعر المعارضة الحرة ، ويجرى وهو غرير الى يوستى ليتلقى صحف باريس وما

تحويه عن ثورة يوليه ، ويتعلم احتقار هذا كله من أجل هذه الوسيطة ، ويكتب فيما تلا من الزمان : « عندما كان الصياد يستقدمنى فى الصباح من المثوى فى عيد ميلاد امى ، وأجد حجرتها زاخرة بأزهار مايو ، وقد كانت شغوفة بها ، ملأى بالثياب والكتب المهداة والممتع من الاشياء ، ثم اشهد وليمة العشاء وفيها عدد كبير من صغار الضباط .. وشيوخ نهمون يتحلون بالاوسمة .. كانت وصيفتها تتلقانى لتتلف معدتى بما تنحيه الى من البطارخ والميرنج وغير ذلك .. ما اكثر ماكان كل اولئك الخدم يسرقون ! اننى لم ارب تربية صحيحة .. فقد كانت امى تحب ارتياد المجتمع ولا تعنى بنا كثيرا .. ان ثمة جيلين يتناوبان فى العادة ، جيل يضرب وجيل يعفى من الضرب . وقد كانت هذه حال اسرتى على الاقل ، وكنت انا من الجيل المضروب »

نكد قبل الاوان

ويشهد اوتو بين الثانية عشرة والرابعة عشرة وهو تلميذ بمدرسة « الدير الاغبر » كراهية النبلاء تشتد فى المدرسة التى يربى فيها الحضريون المتعلمون ابناءهم فيتأصل التحدى فى نفسه . والآن يقيم فى الدار التى تنزل فيها اسرته فى برلين ، فيقيم فى الشتاء على مشهد من نشاط امه الذى يشاطرها اياهابوه اللين البطىء . وفى الصيف يبقى مع اخيه الذى يكبره بخمس سنوات ويصبح طالبا تستغرقه حياة الجسد ، ويعيش مع مربى الاسرة والخادمة وحدهما . وهكذا يستغنى عن الارشاد المنزلى ، ويرى نفسه فى سنيه الحاسمة مكلفا بالعناية بنفسه . وبسمارك لم ير منذ السابعة من عمره الى ان بلغ السابعة عشرة احدا امامه يحتذى مثاله ، او بجانبه يمكن ان يحبه ، سوى ابيه . فهل عجيب أن يصبح نكدا قبل الاوان ؟

هذا الى ان الاب لم يكن « مؤمنا » كما يروى الابن ، وان الام كانت متصوفة بصورة ما ، فكلاهما لم يكن يذهب الى الكنيسة . وكلاهما كان يدرس للغلامين شلايرماخر (١) وهو من اشتد فى نقد الصلاة ونعتها بأنها مرحلة انتقال الى السحر ولم يوص بها الا لانها تساعد على خلوص النفس . وكانت الام ذاتها تكبر من شأن سفيد نبورغ (٢) وكاشفة بريفورست (٣) ونظريات مسمر(٤) وتتدله بها تدلها يناقض كما يلاحظ الابن ، « صفاء ذهنها وعقلها الرزين فى العادة تناقضا غريبا وكانت تزعم انها كشافة ، فلم يكن سوى زوجها الذى كانت تنظر اليه من عل لانه لا يراعى فى حديثه قواعد اللغة — من لا يعبأ بهذا الكشف . فقد شكا الى صديق له متبسطا ، من انها مع كل كشفها لم تستطع أن تتكهن بأن اسعار الصوف فى آخر موسم الصوف تهبط عما تكون عليه فى اوله »

---

(١) عالم لاهوتى ألمـــانى من ألمع الاذهان وأعظمها تأثيرا فى كل العصور . عاش فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . (٢) عالم ومتصوف سويدى اشتغل بالارواح وكتب عنها وزعم أنه أطلع على الجنة والنار . (٣) كتاب ليوستينوس كيرنر الشاعر والطبيب الالمانى تناول فيه تداخل عالم الارواح فى عالمنا . (٤) عالم ألمانى ابتكر ما يسمى بالمغناطيسية الحيوانية

بداية العناد

وطبيعى ان الوالد كان دائما راضيا عن ولديه ، وان الام لم تكن قط راضية . فكان الاب يقول : « انى لا افتأ افخر بشهاداتكما . فأمس كانت عندنا اسرة بيلو فأريتها اياها . وكم سرنى ان نوهت بكما » وكانت الام تقول : « تطلع حولك واسمع ومحص حكم الناس على التعليم المحض تسلم بأنه لابد لك من الكثير قبل ان تطالب بحقك فى لقب الرجل المتعلم . » وحين يسقط الغلام ذات مرة عن جواده فى الرابعة عشرة من عمره يكتب اليه الاب يقول : « ياعزيزى اوتو ، ما كان جوادك ليحرن هذا الحرن ، لكنما الراكب سقط فى سهولة . ذلك انك تمتطيه كما لو كنت صرة من خرق ، فاذا كان لديك ما ترد به فلك ذلك » هذه هى النغمة التى تعرض المربى للسخرية او تعرضه للكراهية ، فاذااصطدم مثل هذا الاستياء بكبرياء مطبوعة فلابد ان يخرج عن هذا الاصطدام غلام ناب عنيد

لم يكن بسمارك يحذق شيئا حذقه للغته الالمانية حتى ولا حذقه للتاريخ الذى نقل الى الفصل الاول بدرجته فيه وهى ١٥ من ١٨ ، وكان احيانا يلام فى الشهادة « على تكبره الزائد .. وكذلك يلوح أنه لايبدى نحومعلميه الاحترام الواجب » وهو يحاول دائما ان يطيل من نومه ، ولاتنبسط نفسه اذا انبسطت الا متأخرا . ويحتفظ بهذه الخاصية المعروفة عن العصبيين طيلة حياته ، ان طبيعة بسمارك من الطبائع المظلمة

وهذا الصبا الجهم لا يشرق الا لأخته مالفنشن التى ولدت متأخرة ، وهى تصغر بسمارك باثنى عشر عاما . يعزها الوالدان ، ويتسلى بها الأخوان ، ويكتب عنها فى الرابعة عشرة من عمره يقول : « لقد تكونت مالفنشن واكتمل شخصها . وهى تتكلم الألمانية والفرنسية كيفما اتفق . وهى تعرفك ايضا » ويسمح للغلام منذ الخامسة عشرة فى قضاء العطلة الصيفية فى البلدة . وقد مضى ذات مرة اذ ذاك « بضع ساعات مع المرأة الجميلة » فى احدى المزارع ، واستأثر فى السادسة عشرة « بمربية حسناء » فى عجلة البريد ، وكانتألمت بها وعكة واصابها وهن فارتمت فى احضانه . وكلف اخاه ان يرسل « خطابا غراميا » غفلا الى سيدة من الجيران

وينتاب التشكك العام ابن الخامسة عشرة فيرد فى رسائله فيما يرويه عن الريف : « فى يوم الجمعة هرب منالسجن ثلاثة شبانيفعمهم الامل هم : مضرم نار ، وقاطع طرق ، ولص .. فزحف جيش الريخ فى المساء فى كنييهوف على الفيلان الثلاثةوعدته خمسة وعشرونجنديا منالاندشتورم . بيد انعساكرنا تولاهم الرعب فكانوا كلما التقت فصيلتان منهم ونادت احداهما الاخرى لم يجرؤ احد على الرد من فرط الخوف »

تشكك باكر

من هذه النفسيات تنشأت حتما فى ابن السابعة عشرة والثامنة عشرة نيهلية كاملة فى العقيدة والفكر . ولم ينبت تشككه العام سوى عقيدته السياسية

الاولى التى لم تدم طويلا : فحين بارح مدرسته وهو فى السابعة عشرة يوم ان توفى جوته ، كان مقتنعا ، رغم انه لم يكن جمهوريا ، بأن الجمهورية أرشد اشكال الدولة . وكان يفكر فى الاسباب التى امكن ان تفرض على ملايين الناس الطاعة لفرد واحد دائما . وقد ظلت هذه الاسباب فى حيز التأملات النظرية ، ولم تبلغ عنده من القوة ما تستأصل به مشاعره المطبوعة نحو الملكية البروسية، فبقيت عواطفه التاريخية فى جانب السلطة . فهارموديوس وبروتس كانا يبدوان له مجرمين متمردين ، وكان كل امير المانى يناهض الامبراطور يثير سخطه

هذه الافكار الغامضة عن الدولة قد تمخضت عن تحزب حاسم فى حالتين اثنتين فحسب على قدر ما يذكر . وقد كان خلقه هو المقرر لموقفه الشخصي فى كلتا الحالتين ، فمنذ أن كان تلميذا وهو يحس من خطب الريشستاج العتيقة ضيقا « حين قرأ الفاظ السباب النابى الذى اعتاد أبطال هوميروس أن يتبادلوه قبل النزال » وكما كان خصيما للمهاترات السياسية كان فى ذلك الحين عدوا كذلك لكل فعل عديم الاثر فكان يقابله بحرارة ويحمل عليه بحمية . كان ضد « تل » فقال : « كان انبل واكثر تمشيا مع الطبيعة فى رأيى لو انه ، بدلا من ان يطلق سهمه على ولده الذى كان يمكن امهر رام ان يصيبه بدلا من التفاحة ، اطلقه على الحاكم . فقد كان هذا حقيقا أن يكون غضبا عادلا على تكليف قاس . اما الاختباء والتربص فلا يعجبانني »

آخر صلاة

وقد وقف حيال العقيدة موقفا واضحا كل الوضوح . ففى اوان « التثبيت » اى حوالى عيد ميلاده السادس عشر يقول : « كففت — عن تفكير ناضج لا عن قلة اكتراث — عن الصلاة كل مساء كما اعتدت منذ حداثتى . ذلك انه بدا لى ان الصلاة تتضارب مع رأيى فى الله ، اذ قلت لنفسى اما ان يكون الله بوجوده فى كل مكان هو باعث افكارى ومظهر ارادتى . . واما ان تكون ارادتى مستقلة عن الله فيكون من الجرأة فى حقه أن أعتقد أنى أؤثر فيه بتوسلاتى البشرية » والعجيب هنا هو التعليل وحده : ذلك انه ربى بلا عقيدة ، وكان اكثر تشككا من ان يجعل من نفسه مؤمنا . وهذا هو الكامن فيه وفى والديه ، بيدانه بتدليله الذى يبديه فى صغره يدل على الواقعى المتكبر الذى لا يتخلى لسلطة فوقه الا عما تفرضه عليه المناسبة القائمة . وهذا الفتى ينزع الى النيهيلية دون أن يخطىء فى حق الله بنكران صريح ، ويحيل على ربه تبعة تفريطه. فى الصلاة كما يفعل الديبلوماسي تماما ، ويتظاهر بولاء يخفى وراءه السخر ، ويقف ربه بأما واما امام بديل لا يمكن ان يكون الله اعتاده من خلقه . فالانحناءة التى تفرضها التقاليد لا توهن من اعتداده بذاته

على هذه الصورة وقف بسمارك لاول مرة حيال ملك

الفصل الثالث

فى ميدان السوق شاب يخطو خطوا وئيدا فى جد مصطنع ، تلفت نحافته البالغة الانظار ، ويرتدى مبذلة زاهية من مباذل النوم ، وقلنسية غريبة الشكل ، ويلف عصيته فى يده ، ويضع غليونه الطويل فى فمه ، فاذا نادى « ايرييل » تمسح فى ركبته كلب اصفر كبير من نوع الدرواس . على هذهالصورة يدنو الشاب من مدرسة جوتنجن العليا ليمثل امام قاضيها الذى استدعاه ليحاسبه على مسلكه وملبسه اللافتين للانظار . ويمر به بعض زملائه فى لباسهم العادى وقلنسيتهم الملونة فيضحكون ، فيدعوهم الثعلب فى الحال الى المبارزة ، فيسوى اكبرهم النزاع ، وتأخذهم « شهامة » النصف الاول من السنة الدراسية فيدعونه اليهم ، ويقترحون عليه الانضمام الى فرقتهم ، وأن يكون عضوا عاملا فيها بعد المبارزة الاولى

لقد كان الظهور هو اول ما انتوى بسمارك حين قدم الى جوتنجن ، وكل شىء سيقصه قريبا صديقه الامريكى الجديد فى رواية من روايات الطلبة عن « اوتوفون رابنمارك » انما هو صورة من بسمارك يراه فيها المرء راى العين ويسمعه ، نحيل « كالميبر » ذو شعر منفوش ، وعينين احمرت جفونهما ، يتكلم أربع لغات ، ويعزف البيان باحثاعن الشجاردائما ، مشاغب غريب اللباس ، لا يتكلم كلاما معقولا الا حين يكونان وحدهما « بهذا المظهر ، وهذه الاهانات الخ . . أريد ان التحق بأبدع فرقة ، لكن هذه جميعا صبيانيات فما يزال عندى متسع من الوقت . انى اريد ان اقود رفاقى هنا كما سوف اقود الناس فى الحياة » . ويقسم انه لن يموت قبل تسع عشرة سنة وتسعة اشهر ، فاذا تخطى هذا الاجل فسوف تكون امامه اثنتا عشرة سنة اخرى . وينعته الروائى الشاب بأنه « مادة بطل تتبخر هنا » وذلك عقيب هذه الانصاف من سنى الدراسة وقبل ان يخرج هذا النمط العجيب من مغارته بعشر سنوات

ثعلب جوتنجن

ان كل شىء فى هذا الثعلب يلفت انظار الطلبة العديمى الاذى : جراته وغطرسته وافراطه واناقته وعنفه وطيبته . وكنياته التى تطلق عليه هى :

رأس الطفل وكاسوبة (*) واخيل . كذلك كان يخزه وصفه بالمجنون والشرقى (نسبة الى شرق المانيا) والقرنى . وحين يبدو فراكه بدفتيه الطويلتين ولونه الذى يشبه لون التفاح الاخضر أو تبدو سترته المخملية ذات الازرار الصدفية « خزانة ثياب ثمينة على غير المألوف » بدلا من الاجتزاء فى الخروج باللفاعة والقلنسية ، وحين يهيم بعد الافراط فى الحانة فى احتساء نبيذ الرين والمديرا الى النهر ليستحم بالليل فى الماء البارد ، وحين يعنف مرارا وتكرارا لاسرافه فى التدخين والمشاجرات ويحتقر سلطة المدرسة اكثر مما يحتقر الرفاق ، وينام بالليل عاريا دائما لان كل قطعة من الكتان تضايقه — حين يفعل هذا يتحاشى المرء اغاظته لانه يدعو الى المبارزة فى الحال وينتصر دائما . بورز خمسا وعشرين مرة فى انصاف السنة الثلاثة الاولى فلم يمس الا مرة : شىء له تأثيره فى قدامى الطلبة ومن ثم يبلغ سريعا ما يريد : فهم يهابونه

الصـــديقان

ويجرى الحديث على مائدة الغداء التى يؤثرها خمس لغات ، فالنبيل اليوميرانى يكاد لا يتعامل الا مع الاجانب . فهو يكسب صديقين فى وقت واحد ولا يتخلى عنهما مدى الحياة ، ذلك انه مع هذين الصديقين لن يختلف فى المستقبل على شئون السياسة كما سوف يختلف مع القلائل الآخرين ممن كانوا الادنين اليه فى عهد الشباب . فقد لبث موتلى الامريكى المرح ، المهذب ، المنصف ، والكونت كيزرلنج الناضج الزاهد ، صديقيه الوحيدين الى شيخوخته. وكان موتلى فى شبابه فحسب مؤلفا ثم كان بعد ذلك مؤرخا ، وديبلوماسيا ، بينما لم يزاول كيزرلنج العالم البحاثة الطبيعى عملا عاما الا بجانب نشاطه العلمى وكلا الاثنين اكبر من بسمارك سنا ، وارضى نفسا ، واكثر توحدا . وجد فيهما اكتفاء ينقصه ، وحرية كانت تنقص الالمان من حوله . وكلاهما لم يكن من العاملين فى الفرقة .

والقانون المفروض انه درسه كان يراد ان يعده لان يكون ديبلوماسيا . فقد كانت رغبة الام الطموح ان تجدد فى ابنها سلطان ابيها ومركزه ، وهى فكرة حضرية من الفها الى يائها ، لا تخطر الا لآل مينكن ، ذلك انها كانت جديدة على بيت بسمارك : فان احدا من هذا البيت لم يخدم ملكه بغير السيف . وهذا باب لم تضطر الام الى صرف ابنها عنه ، فلم يكن ينزع الى ان يكون ضابطا وكان من الممكن فى هذه السنوات الراكدة المضطربة من عمره بين السابعة عشرة والعشرين ان يوجه اية وجهة ، ذلك انه لم يكن لارادته اتجاه ما

كذلك كان بسمارك من عدم الاكتراث للحياة السياسية بحيث لا يمكن تتبع ميوله الاولى ، فلم يلبث ان تجنب الزملاء الذين كانوا يشربون نخب الامبراطور والريخ ويتغنون بهما ، وتحاشاهم بعد الزيارات الخاطفة الاولى : « اذ كانوا يتهيبون المبارزة وشرب الجعة ، وتنقصهم مظاهر المجتمع الراقى » ومن ثم

---

* نسبة الى جنس سلاف يقطن الآن بعض جهات بوميرانيا بألمانيا

انسحب من الدوائر التى كانت تمثل وقتئذ فكرة الريخ فى المدارس العليا . وكان انسحابه لاسباب تتصل بالمزاج والسلوك . لكنه حين سخر رفاقه على المائدة من البروسيين الذين ندر ان درسوا هنا فى هانوفر ، دعا ستة من زملائه الطلبة فى الحال الى المبارزة . وهو يدافع عن تدخل بلوخر الحاسم فى معركة ووترلو دفاعا حاميا حتى ليقول احد من سمعوه : « ان الثعلب يتكلم كما كانوا يتكلمون فى عهد فريتس الهرم ! » ويلوح ان المشاكل القومية لم تكن تهمه ، فانه لم يستمع فى هذا الباب ولا مرة الى اشهر استاذ ، بل كان يؤثر ان يعاقر الخمر مع اصدقائه الامريكيين ويشرب نخب الحرية فى يوم الاستقلال ، لكنه حين يتحدث متحدث عن تمزق المانيا يراهنه بسمارك على اتحاد المانيا بعد خمس وعشرين سنة على خمس وعشرين زجاجة من الشمبانيا ومن يخسر الرهان يقدم عبر المحيط ليفرغ هذه القنانى معه . لكنه فى هذا الرهان اخطأ الحساب فى ثلاث عشرة سنة

اول خطاب ديبلوماسى

وهو فى كل ذلك يتعهد المظهر فى البداية فيحث أخاه الاكبر الملازم قائلا : « لا تكتب بهذه الخشونة الى البيت فى كنيبهوف ، فهو أكثر قابلية للخداع والكذب الديبلوماسى منه لخشونة الجند » والمظاهر والملابس والمطالب تكلف مالا كثيرا ، فبعد سنة واحدة « تقع الواقعة بينى وبين ابى الذى يأبى ان يسدد ديونى .. ولم يكن عوزى بالغا هذا المبلغ ، فالثقة بى كبيرة جدا ، وهو ما يسر لى عيش الفسوق . والعاقبة أن أبدو شاحبا مريضا وهو ما سوف ينسبه أبى بطبيعة الحال الى نقص مواردى ، حين أعود الى البيت فى عيد الميلاد . عندئذ اتقدم منه بقوة واقول له انى افضل ان اصبح كافرا عن ان ارضى بأن اجوع اكثر من ذلك ، وعندئذ تسوى المسألة . فهل الطالب الذى يكتب ذلك لم يخلق ليكون ديبلوماسيا ؟ يعامل الناس ، ويزن البواعث ، ويستغل الموقف الراهن ، ويتملص من كل ذنب ، ثم يلجأ الى الحيلة التى تلقى التبعة على الخصم : كل أولئك عناصر السياسة ، وأمه التى تغضب لذلك لا تعرف أن غريزة تكاد تكون امينة ، تشق الطريق الى ما يحقق مطمعها فيه

موتلى

ولما عاد ابن الثامنة عشرة الى بيته مريضا مضنى من الافراط فى الطعام والشراب ، متراخيا كما كان جوته الشاب ، ثم عاد فاسترد العافية بمأكل الريف ومشربه وما لقى من الراحة فيه ، ثم آن أوان الرحيل الى برلين ليتابع فيها دراسته ، لاحت الأم وكأنها تخلت عنه بعض التخلى : « أعتقد أنه يروق أمى الآن أن أرتدى السترة الزرقاء وأقف أمام « بوابة هله » أدافع عن الوطن . فقد قالت لى اليوم حين نهضت من نومى متأخرا انى ألوح لها قد فقدت كل ميل الى الدراسة » . وحقا انه لا يميل الى الدراسة لكنه الى السترة الزرقاء